الدور الاجتماعي والاقتصادي للقوافل التجارية والحجية بالصحراء الجزائرية أثناء الفترة الحديثة

أ. محمد الكبير فقيقي /جامعة طاهري محمد بشار،الجزائر

الملخص.

تضافرت عوامل عديدة في بناء حضارة المجتمع بالصحراء الجزائرية على امتداد تاريخي طويل المدى، ولعل أبرزها وأشدها تأثيرا قوافل التجارة وأركاب الحج العابرة للصحراء الكبرى الإفريقية طولا وعرضا. حيث تفاعلت العوامل الدينية مع الحاجات الاقتصادية وحولت الصحراء إلى مجال خصب يستقطب مجموعات بشرية من كل أطراف الصحراء الفسيحة. وأخذ النسيج الاجتماعي يتشكل تدريجيا، وترسخت معالم الاقتصاد الصحراوي، فأصبحت حركة قوافل التجارة وأركاب الحج محور التحولات والتفاعلات داخل المجال الصحراوي.

الكلمات المفتاحية:

القوافل التجارية، ركب الحج، الصحراء الجزائرية، الصحراء الكبرى، الاجتماعي، الاقتصادي.

Résumé :

Plusieurs facteurs se sont combinés pour construire une civilisation de la société au Sahara algérien dans un long terme historique, les plus importantes et les influentes sont les caravanes commerciales et les convois des pèlerins qui traversaient par le grand Sahara africain de par sa longueur que par sa largeur. l'intercection de ces facteurs religieux avec les besoins économiques ont permis de transformer le sahara en un champ fertile qui attire les groupes humains de tous les endroits du grand sahara. C'est ainsi que la structure social a commencé à se former peu a peu ce a permis la consolidation et l'etablissement des paramètres économiques du sahara. Le trafic commercial et le convoi des pèlerins sont alors devenus un axe important à l'interieur du sahara.

Les mots clés :
Les caravanes commerciales. les convois des pèlerins. Sahara algérien. le grand Sahara. Social. Economique.

تقديم منهجي.

تشكل الصحراء الجزائرية جزءا عظيما من الصحراء الكبرى الإفريقية، ولذلك ظلت مجالا وفضاءا رحبا لحركة ونشاط القوافل التجارية منذ العهود القديمة، وكذلك لحركة أركاب الحجاج منذ التواجد العربي الإسلامي بالمنطقة خلال العصور الوسطى، فأسهمت هذه الحركة التجارية والحجية في ظهور مجموعات بشرية جديدة بالصحراء، وتأسست حواضر عرفت بالقصور متناثرة في الوسط الصحراوي الفسيح، وشيد معظمها على خط سير القوافل، وتحولت تدريجيا إلى مراكز للإشعاع الديني والعلمي والإمداد الاقتصادي.

لقد اقتصرت هذه الدراسة في إطارها الزماني على معالجة الفترة الحديثة دون غيرها بالنظر إلى عاملين هما:

*أن حركة القوافل التجارية والحجية انتعشت بشكل لافت منذ بداية الفترة الحديثة، رغم نشاطها الدائب أثناء العصر القديم والوسيط، فالعصر الوسيط يمكن أن نصطلح عليه بمرحلة انتشار المد الحضاري العربي الإسلامي في الصحراء، بينما الفترة الحديثة فهي مرحلة تأسيس واستقرار نمط حضاري متميز مصبوغ بالصبغة العربية الإسلامية، مع بقاء الكثير من الأنماط الحضارية الامازيغية والإفريقية، ولم تترسخ معالم الحضارة الاسلامية بالصحراء إلا عبر القوافل التجارية والحجية بعد توقف حركة الفتح العسكري.

*أن رحلات المغاربة الحجازية لأداء فريضة الحج أثناء العصر الوسيط كانت في معظمها على الطريق البحري، أي أن الصحراء لم تكن معبرا لها في الغالب، بينما شهد العصر الحديث أكبر موجة للرحلات الحجازية على الطريق البري الصحراوي، حيث جابت الصحراء الجزائرية في رحلة الذهاب والإياب، لا سيما أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، لأن القرن

السادس عشر الميلادي شهد حالة ركود في نشاط الرحلة الحجازية لأسباب لا يمكن الكشف عنها الآن كما يقول المؤرخ أبو القاسم سعد الله.[1]

وإذا كان نشاط القوافل التجارية والحجية استكمال لحركة الفتح العربي والإسلامي للمنطقة فإلى أي حد ساهم نشاط القوافل في تأسيس الحواضر الصحراوية وتوحيد العناصر البشرية القاطنة بها، ومن ثم بناء اقتصاد قوي في إطار الحضارة الإسلامية، لتتحول الصحراء إلى مركز للتفاعل الاجتماعي والإمداد الاقتصادي على مستوى القارة الافريقية والعالم المتوسطي، وعليه يمكن معالجة هذه الاشكالية على ضوء العناصر التالية:

-تمهيد: يتناول أهم مسالك القواقل بالصحراء.

1-دور القوافل في تشكل الحواضر والتجمعات البشرية بالصحراء.

2- أثرها في الانتعاش الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الصحراوي.

تمهيد.

لقد نشطت القوافل التجارية خلال العصر الوسيط والحديث في الصحراء الكبرى، واستمر نشاطها حتى القرن التاسع عشر الميلادي، حيث قضى عليها الأوروبيون الواحدة تلو الأخرى.[2]

من أبرز طرق القوافل التجارية الجزائرية نحو الصحراء طريق وهران وأرزيو إلى تمبكتو، الذي يمر على الخيثر ومشرية وعين الصفراء وفجيج، ويتبع وادي زوزفانة الى ايجلي، حيث يلتقي بطريق فاس- تومبكتو، وله فرع آخر إلى شرق الطريق الأول، يبدأ من الخيثر إلى البيض والأبيض سيدي الشيخ والمنقب وتوات.[3]

ولذلك شكلت الصحراء المعبر الوحيد للقوافل القادمة من الشمال والمتجهة نحو أقصى الجنوب، أي نحو منطقة السودان الغربي في رحلة الذهاب والإياب، ولقد ساهم سكان الصحراء في هذه الحركة التجارية عن طريق وسائل النقل التي يملكونها، لا سيما الإبل وببعض

السلع التي ينتجونها مثل الصوف والمواد النسيجية، كما أن بعض تجار الصحراء كانوا يصاحبون القوافل في الذهاب والإياب.

لقد اختلفت مسالك وطرق ركب الحجاج المغاربة في الصحراء من عصر إلى آخر، بحكم الظروف الأمنية المرتبطة بالوضع السياسي والاقتصادي السائد، ففي القرون الوسطى كانت اغلب الرحلات عن طريق البحر، وخلال العصر الحديث أصبحت أركاب الحج تفضل الطريق البري عبر الصحراء لتحسن الحالة الأمنية وانتعاش حركة التجارة وتعدد التجمعات البشرية في هذا المجال.

اختلف مسار رحلة الحجاج في ذلك المجال، فهناك من كان يجتازه عبر محاوره العميقة مثل إقليم الساورة وتوات وقورارة وتديكيليت، وفريق آخر كان يعبره من أطرافه الشمالية أي على امتداد سلسلة جبال الأطلس الصحراوي، التي تشكل الحد الفاصل بين الصحراء وشمال البلاد .

1- دور القوافل في تشكل الحواضر والتجمعات البشرية بالصحراء.

احتضن المجال الصحراوي بفضل حركة تلك القوافل عناصر بشرية جديدة متباينة في نمط معيشتها عبر مختلف المراحل التاريخية، فإلى جانب العناصر الأمازيغية والإفريقية التي عمرت الصحراء منذ عهد قديم، توافدت على المنطقة القبائل العربية القادمة من شبه الجزيرة العربية، ففي القرن الرابع الهجري - 10 م- نزح نحو الصحراء الشرفاء الأدارسة بقيادة عيسى بن عبد الرحمان الشريف الإدريسي، في أعقاب المذبحة التي تعرض لها هذا الفرع من الادارسة بفاس على يد موسى بن أبي العافية.(4)

وفي منتصف القرن الخامس الهجري -11م- قدمت قبائل صنهاجة إلى المنطقة مع الزحف اللمتوني المرابطي، ووصلت في نهاية القرن السادس الهجري مجموعة من القبائل الهلالية من بني عامر بن زغبة الى المنطقة.(5) وهي التي تمثل حاليا كبرى القبائل العربية في الصحراء.

أما قبيلة أولاد سيدي الشيخ البوبكرية فقد استقرت في المنطقة منذ القرن الخامس عشر الميلادي.(6)

وهكذا فتحت الصحراء أمام الهجرات العربية المتلاحقة والناجمة عن حركة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب. واستمرت عبر القوافل التجارية والحجية، إذ أن الاستقرار الأول لتلك القبائل كان على امتداد خط سير القوافل، ومنه شرعت تنتشر في المناطق الأخرى.

لقد تكررت ظاهرة النزوح نحو الصحراء مع العناصر اليهودية المطاردة من الأندلس اثر سقوط آخر معاقل المسلمين به وهو غرناطة، ويقول الباحث المغربي محمد حجي في هذا الشأن: » كانت موجات الهجرات من الأندلس تقذف خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين ،الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين بمجموعات من المسلمين واليهود إلى الضفة الجنوبية من حوض البحر المتوسط ، فاستقر عدد غير قليل من اليهود ببلاد المغرب ...انتشر اليهود في مدن المغرب وقراه في عهد السعديين من أقصى الشمال إلى تخوم الصحراء، واستوطنوا بالخصوص المراكز التجارية التي تمر منها أو تنتهي إليها قوافل الذهب الرابطة بين شمال إفريقيا والسودان. «(7)

2- أثرها في الانتعاش الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الصحراوي.

أدى التنوع في العناصر البشرية المستقرة بالصحراء إلى تشكل مجموعتين متباينتين من حيث أسلوب العيش والحياة، إحداهما مستقرة في المدن والقرى، وتمارس النشاط الفلاحي والحرفي بالدرجة الأولى، والأخرى متنقلة عموما تمتهن حرفة الرعي وتربية المواشي، وساهمت كل مجموعة بمنتجات مختلفة عن الأخرى في المبادلات التجارية التي كانت تنشطها القوافل.

وكان لليهود المستقرين بهذا النطاق الدور البارز في الاشتغال بالتجارة وصياغة الحلي وضرب النقود، وأصبحوا يمارسون دور الوسطاء في تجارة السكر، فكانوا على اتصال بكبار

التجار وأرباب السفن والشركات الأوربية التي كانت تتعامل مع المغرب ولا سيما أبناء ملتهم القاطنين بأوروبا.[8]

بسبب هذا التنفذ اليهودي في الصحراء، وبخاصة بمنطقة توات وتمنطيط، عزم الشيخ المصلح والداعية عبد الكريم المغيلي التلمساني على الرحيل إلى إقليم توات ومحاربة اليهود المستخفين بالأحكام الشرعية والمحتقرين لفقراء المسلمين، ورأى المغيلي أن اليهود نقضوا بذلك عهد الذمة، فأحل دماءهم وأموالهم وهدم بيعهم، وأعلن الجهاد ضدهم، فكان لهذا الحدث أثر عميق في حياة المجتمع الصحراوي، فمنذ ذلك الحين لم يتمكن اليهود من إظهار الغلبة أو الاستخفاف بالمسلمين، بل إن بعض العائلات التواتية تمكنت من وراثة التفوق اليهودي في مجال التجارة وصياغة الذهب وامتهان الحرف بفضل اندماجها في نشاط القوافل التجارية.

من نتائج ذلك النشاط أن القصور الصحراوية أصبحت تتمتع برخاء اقتصادي كبير بفضل غزارة الإنتاج الفلاحي والرعوي وكذا الحرفي، والمساهمة في نشاط القوافل التجارية العابرة للإقليم الصحراوي.[9]

وانعكس ذلك على حالة الأسعار، إذ تشير الرحلات الحجازية الحديثة إلى أن الأسعار كانت رخيصة على العموم، فيصرح الرحالة أبو سالم العياشي عند دخوله قصر بوسمغون الواقع بالقسم الأعلى من الجنوب الغربي الجزائري بمايلي: » نزلنا بوسمغون عند المغرب ووجدناه أرخص من كثير من البلاد التي مررنا عليها«.[10]

ويعود ذلك إلى استقرار الأحوال الأمنية في الصحراء عموما، ففي أحيان أخرى كانت ترتفع أسعار المواد ارتفاعا فاحشا، حينما تتحول الصحراء إلى ميدان تتجاذب فيه السيادة القوى السياسية المجاورة لها[11] مثل السلطة السعدية أو العلوية بمراكش وكذا العثمانية بالجزائر.

تحولت الحواضر الصحراوية إلى محطات ومراكز لتموين الحجاج وتزويدهم بمختلف الحاجيات في رحلتهم الشاقة والطويلة الى الحجاز، فالعياشي صنف القصور الصحراوية إلى

محطات، وكل محطة كانت لها أهمية خاصة بالنسبة للحجاج، فقصر بوسمغون مثلا كان محطة للتزود بالأعلاف والزاد لسبعة مراحل أو ثمانية حتى يصل الركب إلى قصر عين ماضي[12] بالأغواط باعتباره محطة للتزود بمواد أخرى، وهكذا إلى أن يؤّمن الركب كل حاجياته على امتداد طول الصحراء الجزائرية المترامية الأطراف.

أما السلع الرائجة بين أوساط الحجاج في الصحراء فيمكن ترتيبها حسب أهميتها عند الحجاج كما يلي:

- أعلاف الدواب: خصوصا الزرع، وعليها تتوقف استمرارية الرحلة.

- الدقيق: الذي يمثل الغذاء الضروري للحجاج والمسافرين وعليه تتوقف حياتهم.

- السمن أو الدهان: وهو أحد مشتقات الحليب، يستخدم مع معظم الأغذية والوجبات لأنه يقوي الجسم ويساعده على تحمل مشاق السفر، خصوصا في فصل الشتاء، والسمن من أكثر المواد الغذائية وفرة في القصور الشمالية الصحراوية،[13] وهذا المنتوج الحيواني يستقدمه الأعراب والرعاة إلى القصور، ويدّر على أصحابه أرباحا طائلة.

- الحيوانات أو الدواب: تشمل الإبل والحمير والبغال والخيول، باعتبارها وسيلة النقل الوحيدة في ذلك العصر، فلقد اضطر العياشي إلى بيع ناقته التي كان يحمل عليها كتبه في قرى (أربا) من أجل شراء ما يحتاجه الحجاج من الغذاء، لأن الرحلة من الأغواط إلى أربا كانت شاقة جدا، كما اضطر العياشي للمرة الثانية لشراء حمار من بوسمغون يستعين به في استكمال رحلته إلى فجيج لأن فرسه هلكت في الطريق.[14]

- الأكسية والبرانس: كان الحجاج يشترونها من القصور، خصوصا إذا تزامنت الرحلة مع فصل الشتاء، مع العلم أن القصور الواقعة عل امتداد سلسلة الأطلس الصحراوي تتميز ببرودة شديدة، لأنها تتأثر إلى حد كبير بمناخ الهضاب العليا، فكان الحجاج يفضلون شراء البرانس من القصور سواء البيضاء منها أو المخططة، لأنها تتميز بالجودة والمتانة.[15]

خصصت أسواق لتلك السلع على مستوى القصور بمناسبة موسم الحج، أهمها سوق قصر فجيج، يجتمع فيها التجار من القصور المجاورة وأعراب المنطقة، من قبائل حميان والعمور وأولاد جرير وذوي منيع وغيرها... فضلا عن الزائرين والمتبركين بآثار الأولياء الصالحين، مثل ضريح الإمام الشريف سيدي عبد الجبار الفجيجي.(16)

ساهمت قوافل التجارة وأركاب الحج في امتهان أهل الصحراء لمهنة إرشاد وتوجيه القافلة الوجهة الصحيحة في مجاهيل الصحراء الواسعة، لاسيما إذا تعلق الأمر بالمناطق الرملية أو منطقة الأطلس الصحراوي، لأنها منطقة جبلية ويتعذر فيها اختيار الطريق المنبسط.(17)

كان للحجاج دور بارز في إدخال الكثير من العملات النقدية إلى المجال الصحراوي مثل عملة الريال الاسبانية لأنها نافذة في كل المحطات،(18)وكان الريال يصرف ب6 أواق، كما كان مساويا للدينار الذهبي العلوي، بينما المثقال يأتي في الدرجة الثانية بعد الريال من حيث شيوعه بين الحجاج، وهو يعرف في المغرب بالموزونة الفضية، يعادل 10 دراهم فضية.(19)

وهكذا ساعدت العديد من العوامل في تحقيق الرخاء الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الصحراوي، ففضلا عن دور القوافل الحجية والتجارية كان لاستقرار الأوضاع الأمنية وتوافد العلماء ورجال الصلاح والإصلاح أثر واضح في حيوية وفاعلية المجال الصحراوي أثناء العصر الحديث.

استنتاج.

إن النشاط الدائب لحركة القوافل الحجية والتجارية هو الذي أدى إلى فك العزلة عن مجتمع الصحراء الجزائرية بانفتاحه على مختلف المؤثرات الحضارية الوافدة عبر حركة القوافل، مما جعله يرتقي في مستوى التحضر ليستوعب ويتفاعل إيجابيا مع المد الحضاري الإسلامي مع احتفاظه بنمط حضاري إفريقي وأمازيغي اصطبغ وتجاوب مع الثقافة الإسلامية، بحيث لم يكن

هناك سبيل أكثر فاعلية لترسيخ معالم الحضارة العربية الإسلامية في المجال الصحراوي أثناء العصر الحديث سوى القوافل التجارية والحجية بعد توقف حركة الفتح الإسلامي العسكري.

هوامش :

1- في كتابه: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1990م، ص، 179.

2- بوعزيز، يحي، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999م، ص، 110.

3- المرجع نفسه، ص، 112.

4-السلاوي الناصري، خالد بن أحمد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،ج1، تحقيق جعفرالناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م، ص، 81.

5- ابن خلدون، عبد الرحمان، كتاب العبر... ،ج6، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1959م، ص، 90.

6-Louis Rinn. Marabouts et khouan .librairie éditeur adolphe jordan alger .1884.p.35.

7-حجي، محمد، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج1، مطبوعات فضالة، الدارالبيضاء، المغرب، 1978 م، ص، 269.

8- المرجع نفسه، ص، 269-280.

9- الوزان، الحسن، وصف إفريقيا، ج2، ترجمة وتحقيق محمد حجي ومحمد الأخضري، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ص، 132.

10- العياشي، ابو سالم، الرحلة (ماء الموائد)، تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ج2، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، ابوظبي، 2006م، ص ص، 549، 550.

11- حول هذه الظاهرة ينظر: المصدرنفسه، ص، 549. وكذلك: الدرعي محمد بن عبد السلام بن ناصر، الرحلة الحجازية الكبرى، مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم: 6904، ورقة، 622.

12-العياشي، ابو سالم، الرحلة الصغرى، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالرباط تحت رقم ك/ 43، ص ص، 303-306. وهذه الرحلة عبارة عن رسالة مطولة كتبها العياشي لتلميذه أحمد بن سعيد المجيلدي سنة 1657م وهو في بدء طريقه إلى الحج، وقد زوده بإرشادات عن الأمتعة التي يصطحبها معه، وعن طريق الحج ومنازله، وعرفه بالمياه الصالحة وبالمشتريات النافعة... فقسم طريق الحج إلى محطات. ينظر: المصدر نفسه.

13- العياشي، رحلة ماء الموائد، المصدر السابق، ص، 549.

14- المصدر نفسه.

15 - الهلالي السجلماسي، ابو العباس احمد بن عبد العزيز، الرحلة الحجازية، مخطوط بخزانة الشيخ عبد الله البلبالي بقرية كوسام – ولاية ادرار- غير مرقم، ورقة، 10.

16- الدرعي، الرحلة الكبرى، المصدر السابق، ورقة، 92.

17- الدرعي، أحمد بن محمد بن ناصر، الرحلة الناصرية، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية مصور بالميكروفيلم تحت رقم :1954، ورقة 17، 19.

18-العياشي، الرحلة الصغرى، المصدر السابق، ورقة، 306.

19-مزيان، أحمد، فجيج، مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي (1845-1903)، مطبعة فجر السعادة، المغرب، 1988 م، ص ص، 174، 175.